(٢٦)

فقه القرضاوى

يؤذن لنا الآن؛ بعد أن انتهينا من خبر منهجية الاجتهاد، أن نقف وقفة طويلة مع فضيلة الشيخ يوسف القرضاوى، لنستعرض نظريته الوسطية فى الفقه، ومنحاه فى الموازنات وبيان الأولويات؛ فإنه رائد هذه المعانى، وكان له الدور الأهم فى تفقيه الدعاة خلال العقود الأخيرة.

هو الرائد حقًّا، مع وفور المنطق المعتدل ودقة الاستنباط وشمول النظر، وقد حلّ المشكلات، وأوضح المعضلات، وميّز الخلل، وعلل وأسند، فكان «معلم المرونة» حقًّا، وشارح المتغيرات، وتمثل كتاباته مذهبًا فى فقه الدعوة كاملًا مترابطًا متناسقًا موزونًا بمنطق واحد فى بدايته ووسطه ونهايته، وبمنهجية من التيسير الذى تشهد له الأدلة والأصول العريقة، وأنا معه فى معظم ما ذهب إليه، وأرى أنه قد وُفق إلى الصواب توفيقًا، ولستُ أُخالفه إلا فى مسائل قليلة.

وجوب التركيز على خمسة أنواع من الفقه

يدعو الشيخ القرضاوى إجمالًا إلى التركيز على خمسة أنواع من الفقه[١] لأننا أحوج ما نكون إليها، وهى:

* فقه المقاصد، الذى ينفذ إلى كليات الشريعة وأهدافها.
* وفقه الأولويات.
* وفقه السنن الكونية التى أقام الله عليها عالمنا؛ سنن التغيير والنصر وغيرها.
* وفقه الموازنات بين المصالح والمفاسد.

(١) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم/ ٦.

* وفقه الاختلاف بين المسلمين.

وهو يشدد على أن الفقه فى لغة القرآن ليس هو الفقه الاصطلاحى الذى هو معرفة الأحكام الجزئية من أدلتها التفصيلية، من مثل أحكام العبادات والمعاملات، وإنما (هو فقه فى آيات الله، وفى سننه فى الكون والحياة والمجتمع) و(سنن الله فى الأنفس والآفاق، وسنن الله فى خلقه وعقوباته لمن انحرف عن الصراط) و(سنن الله فى النصر والهزيمة ومداولة الأيام بين الناس) وفقه (ضرورة الجهاد والبذل لحماية الدين والنفس والعِرض وكيان الجماعة)[١].

وكتاب الأستاذ عبد الكريم زيدان هو أوفى كتاب فى بيان هذا الفقه.

واستطرد القرضاوى فى كتبه؛ مبينًا أهمية فقه الموازنات، وفقه الأولويات وفقه المقاصد الشرعية، وفقه الخلاف.

فقه الموازنات

وفقه الموازنات هو عند القرضاوى - بإيجاز - ثلاثة أنواع:[٢]

* الموازنة بين المصالح وحجمها وعمقها وأيّها يمكن العمل بها.

* الموازنة بين المفاسد وأيّها يمكن احتماله.

* الموازنة بين المصالح والمفاسد.

وفى ذلك نحتاج إلى:

* فقه الشرع؛ لنعرف الأدلة.

* فقه الواقع بدقة.

ولابد أن يتكاملا.

---

(١) أولويات الحركة الإسلامية / ٢٣، ٢٤.

(٢) أولويات الحركة الإسلامية / ٢٦-٣٣.

وفقه الشرع تحدث عنه الغزالى فى المستصفى، والشاطبى فى الموافقات، وتحدثت عنه كتب الأشباه والفروق. وقد أتى القرضاوى بموجز أقوال الفقهاء فى ذلك.

والمهم ليس أن نفهمها فقط، بل أن نمارسها.

متى نتحالف، ومتى نهادن، ومتى نشارك فى حكم؟

التشويش وارد.

* على المودودى يوم مال إلى فاطمة جناح.
* وعلى الحركة فى السودان لما دخلت مع النميرى الاتحاد الاشتراكى.
* وعلى السوريين لما تحالفوا مع قوى غير إسلامية.

ولسنا ننتصر لهذه الاجتهادات، ولكنا نريد أن نقرر مبدأ الموازنة.

وقد استعرض الشيخ آيات فيها موازنة، وأورد كلام ابن تيمية وفتواه فى تولى عامل تقى لدى سلطان ظالم من أجل تخفيف الظلم.

وأورد فتوى ابن تيمية أيضًا فى تعارض الحسنات والسيئات.

ولذلك استحسن الشيخ:

* المشاركة فى الشركات التى لا تخلو من ربا، وإخراج بعض الربح كصدقة مقابل الفوائد.
* والتوظف فى البنوك لاكتساب الخبرة.
* والكتابة فى الصحف غير الإسلامية.

فقه الأولويات

بيّن القرضاوى وجوب وضع كل شىء فى مرتبته، فلا يؤخر ما حقه التقديم، أو يقدم ما حقه التأخير، ولا يصغّر الأمر الكبير، ولا يكبر الأمر الصغير.

وهو فى السيرة واضح: أن البدء كان بإرساء العقيدة لا تحطيم الأصنام.

ومن الأولويات مراعاة النِسَب للتكاليف الشرعية.

obeikandl.com

فالعقيدة مقدمة على العمل.

والأعمال متفاوتة لها أعلى وأدنى.

وفقه الموازنات متداخل مع فقه الأولويات.

والاهتمام بالفروع قبل الأصول، وبالجزئيات: مرجوح.

فمن الناس من يولع بكثرة الحج ولا ينفق لمقاومة تنصير أو مجاعة.

والأعداء درجات فبمن نبدأ؟

وأورد القرضاوى نصًّا طويلًا للغزالى فى الإحياء حول عدم مرعاة البعض لمراتب الأعمال.

وأوجز عن ابن القيم أن لكل وقت عبادة هى الأفضل، فالجهاد عند غزو الكافر، وطلب العلم عند موت العلماء[١].

ففقه الأولويات عند القرضاوى هو الذى (يعالج قضية اختلال النسب واضطراب الموازين – من الجهة الشرعية – فى تقدير الأمور والأفكار والأعمال، وتقديم بعضها على بعض، وأيها يجب أن يُقدم، وأيها يجب أن يُؤخر، وأيها ترتيبه الأول، وأيها ترتيبه السبعين، فى سُلّم الأوامر الإلهية والتوجيهات النبوية، ولاسيما مع ظهور الخلل فى ميزان الأولويات عند المسلمين فى عصرنا) ولذلك يجب إلقاء الضوء (على مجموعة الأولويات التى جاء بها الشرع، وقامت عليها الأدلة، عسى أن تقوم بدورها فى تقويم الفكر، وتسديد المنهج، وتأصيل هذا النوع من الفقه. وحتى يهتدى بها العاملون فى الساحة الإسلامية والمنظرون لهم، فيحرصوا على تمييز ما قدّمه الشرع وما أخّره، وما شّدد فيه وما يسّره، وما عظّمه الدين وما هوّن من أمره؛ لعل فى هذا ما يحدّ من غلو الغالين، وما يقابله من تفريط المفرطين، وما يُقرب وجهات النظر بين العاملين المخلصين)[٢].

(**وأساس هذا**: أن القِيم والأحكام والأعمال والتكاليف: متفاوتة فى نظر الشرع تفاوتًا بليغًا، وليست كلها فى رتبة واحدة، فمنها الكبير ومنها الصغير، ومنها الأصلى

---

(١) أولويات الحركة / ٣٤ وما بعدها.

(٢) فى فقه الأولويات / ٥.

ومنها الفرعى، ومنها الأركان ومنها المكملات، ومنها ما موضعه فى الصلب، ومنها ما موضعه فى الهامش، وفيها الأعلى والأدنى، والفاضل والمفضول)[١].

* ومن فقه الأولويات: (أولوية الكيف على الكم)، كما سماها القرضاوى **فقال:**

(من الأولويات المهمة شرعًا: تقديم الكيف والنوع على الكم والحجم، فليست العبرة بالكثرة فى العدد، ولا بضخامة فى الحجم: إنما المدار على النوعية والكيفية. لقد ذم القرآن الأكثرية إذا كان أصحابها ممن لا يعقلون أو لا يعلمون أو لا يؤمنون أو لا يشكرون) (فى حين مدح القرآن القلة المؤمنة العاملة الشاكرة)[٢].

وفى القرآن قصة طالوت وانتصار القلة المؤمنة، وفى بدر كذلك، خلافًا لحُنين حين غرتهم الكثرة. والمسلمون اليوم غثاء. (والمقصود بالكم: هنا: كل ما يعبّر عن مقدار الجانب المادى وحده، من كثرة العدد، أو سعة المساحة، أو كبر الحجم، أو ثقل الوزن، أو طول المدة).

* ومن فقه الأولويات: (أولوية العلم على العمل) قال القرضاوى:

(ومن أهم الأولويات المعتبرة شرعًا: أولوية تقديم العلم على العلم. فالعلم يسبق العمل، وهو دليله ومرشده)[٣].

قال: (ولهذا وضع الإمام البخارى بابًا فى كتاب العلم من جامعه الصحيح جعل عنوانه: باب: العلم قبل القول والعمل) واحتج البخارى ببعض الآيات والأحاديث، كآية: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد].

قال: (ومن هنا كان العلم شرطًا فى كل عمل قيادى، سواء كان عملًا سياسيًّا إداريًّا، مثل عمل يوسف عليه السلام الذى قال له ملك مصر: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف]. أم كان عسكريًّا، كما قال تعالى فى

---

(١) فى فقه الأولويات / ٦.

(٢) فى فقه الأولويات / ١٤.

(٣) فى فقه الأولويات / ٥٧.

تعليل اختيار طالوت ملكًا على أولئك الملأ من بنى إسرائيل: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة]. أم كان هذا العمل قضائيًّا، حتى إنهم اشترطوا فى القاضى - كما اشترطوا فى الخليفة - أن يكون مجتهدًا) (وإنما قبلوا قضاء المقلد، مثلما قبلوا ولاية من لا فقه له، للضرورة)[١].

وكذا المفتى؛ وإلا حرم الحلال، وأحل الحرام، وكفّر أهل الإيمان، أو برر كفر أهل الكفر.

وكذا للداعية والمربى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨].

لكن من مكملات أولوية العلم على العمل: أولوية الفهم على مجرد الحفظ.

قال القرضاوى: (وهو أولوية علم الدراية على علم الرواية، وبعبارة أخرى: أولوية الفهم والفقه على مجرد الاستيعاب والحفظ. والعلم الحقيقى هو الذى يتمثل فى الفهم والهضم)[٢].

*** وكذا (أولوية المقاصد على الظواهر):**

قال: (وآفة كثير ممن اشتغلوا بعلم الدين: أنهم طفوا على السطح، ولم ينزلوا إلى الأعماق، لأنهم لم يؤهلوا للسباحة فيها، والغوص فى قرارها، والتقاط لآلئها؛ فشغلتهم الظواهر عن الأسرار والمقاصد، وألهتهم الفروع عن الأصول، وعرضوا دين الله وأحكام شريعته على عباده تفاريق متناثرة لا يجمعها جامع ولا ترتبط بعلة).

قال: (وكثيرًا ما أدت هذه الحرفية الظاهرة إلى تحجير ما وسّع الله، وتعسير ما يسر الشرع، وتجميد ما من شأنه أن يتطور)[٣].

*** ومن المكملات أيضًا: أولوية الاجتهاد على التقليد.** فالعلم عند السلف (هو العلم الاستقلالى، الذى يتبع فيه الحجة، ولا يبالى أوافق زيدًا أو عمرًا من الناس، فهو يسير مع الدليل حيث سار)[٤].

---

(١) فى فقه الأولويات / ٦٠.

(٢) فى فقه الأولويات / ٦٦.

(٣) فى فقه الأولويات / ٧٠.

(٤) فى فقه الأولويات / ٧١.

* ومن أهم المكملات: أولوية القطعى على الظنى. وقد تكلم فى ذلك علماء الأصول. (فينبغى التركيز على القطعيات المجمع عليها، لا على الظنيات المختلف فيها، والذى أضاع الأمة إنما هو إضاعتها للقطعيات، والمعركة بين دعاة الإسلام فى أنحاء العالم الإسلامى وبين دعاة العلمانية اللادينية؛ إنما تدور حول القطعيات: قطعيات العقيدة، وقطعيات الشريعة، وقطعيات الفكر وقطعيات السلوك.

إن هذه القطعيات هى التى يجب أن تكون أساس التفقيه والتثقيف، وأساس الدعوة والإعلام، وأساس التربية والتعليم، وأساس الوجود الإسلامى كله.

وإن من أخطر الأشياء على الدعوة الإسلامية وعلى العمل الإسلامى: جر الناس باستمرار إلى الأمور الخلافية، التى لا ينتهى الخلاف فيها، وإدارة الملاحم الساخنة حولها، وتصنيف الناس على أساس مواقفهم منها)[١].

ليس معنى هذا الكلام (ألا نتكلم فى أمر خلافى قط، ولا نرجح رأيًا على رأى فى قضية عقدية أو فقهية أو سلوكية، فهذا مستحيل، وما عمل العلماء إذًا، إذا لم يصححوا أو يضعفوا أو يرجحوا ويختاروا؟).

إنما الذى ننكره (أن يكون هذا هو شغلنا الشاغل، وأن نعنى بالمختلف فيه أكثر من عنايتنا بالمتفق عليه، وأن نهتم بالظنى فى حين أعرض الناس عن القطعى)[٢].

* وفى مجال الفتوى والدعوة: أولوية التخفيف والتيسير على التشديد والتعسير.

لقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] ولقول عائشة رضي الله عنها : (ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا) وهو حديث متفق عليه.

ولحديث: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» [متفق عليه].

---

(١) فى فقه الأولويات / ٧٩.

(٢) فى فقه الأولويات / ٨٠.

وإذا كان فى المسألة قولان وكان أحدهما أحوط والآخر أيسر فإن القرضاوى يفتى لعموم الناس بالأيسر، وقد يفتى لبعض أهل العزائم بالأحوط، وللمتورعين، أما العموم فالأولى بهم الأيسر، ودليله الحديث الآنف، ويشهد لذلك تخفيف الصلاة.

ومن هذا التيسير أحكام الضرورات، ما ذكر فى القرآن منها من أكل الحرام، أو فى السنة.

ومن ذلك أيضًا: تغير الفتوى بتغير الزمان، وهو يذهب إلى أن تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب ينبغى أن يتغير، لتعقد الحالة الدولية الراهنة، وكذا اعتبار أن الأصل الحرب، والجهاد عندما كان أصلًا فلإزالة الأباطرة والملوك الذين كانوا يقفون فى وجه الدعوة، وأما العالم اليوم فهو مفتوح.

ومن ذلك أيضًا: مراعاة سُنة التدرج، كالذى كان فى تحريم الخمر. **قال:** (ولا نعنى بالتدرج هنا مجرد التسويف وتأجيل التنفيذ، واتخاذ كلمة التدرج تكأة لتمويت فكرة المطالبة الشعبية الملحة بإقامة حكم الله، وتطبيق شرعه؛ بل نعنى بها تعيين الهدف، ووضع الخطة، وتحديد المراحل بوعى وصدق)[١].

* وفى مجال المأمورات والمنهيات: لاحظ الشيخ القرضاوى اطراد ظاهرة الأولويات فى مجال المأمورات الشرعية.

* أظهرها أولوية الأصول، أى ما يتصل بالإيمان بالله تعالى وتوحيده والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، على التشريع الذى هو فرع من ذلك.

* وأولوية الفرائض على السنن، ووجود تساهل فى السنن والمستحبات، وخطأ الاشتغال بالسنن على الفرائض.

* ولاحظ أولوية فرض العين على فرض الكفاية.

* وأولوية حقوق العباد على حق الله المجرد، فالمديون الذى لم يحج: أولى أن يَدفع دينه.

---

(١) فى فقه الأولويات / ٩٣.

* وأولوية حقوق الجماعة على حقوق الأفراد، فإذا تترس الكفار ببعض المسلمين: لم يمنع ذلك من قتل الجميع فى الجهاد. وإذا احتاج إمام المسلمين إلى أموال أغنياء المسلمين لدفع هجوم الكفار: أخذ منها ما يكفى.

* وكذا أولوية الولاء للجماعة والأمة على القبيلة والفرد.

* ومثل ذلك: ظاهرة الأولويات فى المنهيات. فالكفر أبغض الحرام، وهو درجات: أبغضه: كفر الإلحاد، والجحود. ثم كفر الشرك، ثم كفر أهل الكتاب، لذلك جاز أكل طعامهم ومصاهرتهم.

(وهذا يضع أمام أعيننا قاعدة مهمة للموازنة والترجيح فى التعامل مع غير المسلمين، واعتبار أهل الكتاب – فى الجملة –: أقرب من الملاحدة والوثنيين، ما لم تكن هناك عوامل خاصة تجعل أهل الكتاب أشد عداوة وحقدًا للمسلمين، كما نرى حديثًا عند الصرب وعند اليهود. ومن المؤكد أن الكفار منهم مسالمون، فلهم منا المسالمة، ومنهم معادون محاربون، فنحن نحاربهم بمثل ما يحاربوننا به، فهناك الذين كفروا فقط، وهناك الذين كفروا وظلموا، أو كفروا وصدوا عن سبيل الله، وكلٌ له حكمه)[1].

وشر أنواع الكفر: الردة؛ إذ هى (خيانة للإسلام ولأمته، لما فيها من تبديل الولاء والانتحاء والاتجاه من أمة إلى أمة) (فليست الردة إذًا مجرد موقف عقلى يتغير، إنما هو تغيير للولاء والعضوية من جماعة إلى أخرى مضادة أو معادية لها) لكن علينا (أن نميز بين المرتد الصامت والمرتد الداعى إلى ردته) فالثانى يقتل.

ثم كفر النفاق هو من أغلظ أنواع الكفر، لأنهم يعيشون بين المسلمين ويشاركونهم فى العبادات، لكنهم يمكرون.

ثم فى كل هذا نفرق بين الأكبر والأصغر من الكفر والشرك والنفاق لأن نصوص الشرع قد وردت بإطلاق كلمات الكفر والشرك والنفاق على المعاصى ولاسيما الكبائر، فينبغى أن يعلم ذلك حتى لا نتهم العصاة بالكفر الأكبر، مثل تارك الصلاة كسلًا لا جحودًا.

---

(١) فى فقه الأولويات / ١٦١.

والشرك الأصغر: مثل الرياء، والحلف بغير الله، وسجود المريد الصوفى للشيخ، والنذر لغير الله.

وأما النفاق الأصغر فهو نفاق العمل والسلوك والتخلق بأخلاقهم مع سلامة العقيدة، فإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان.

وبعد الكفر تأتى كبائر المعاصى الموبقات، من القتل وأكل الربا ومال اليتيم، والزنى، وغير ذلك.

ومنها موبقات القلوب، مثل الكبر، والحسد، واتباع الهوى، والإعجاب بالنفس، والرياء.

ثم تأتى الصغائر التى سماها الشرع لـممًا ومحقرات، كالنظر إلى النساء، والقبلة، لكن الصغير إذا أضيف إلى الصغير كبر، ويكبر الذنب الصغير باستصغار الذنب، وبالمجاهرة. **قال ابن القيم**: (إن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها فى أعلى رتبها)[(١)].

ويلحق بالمعاصى: البدع الاعتقادية والعملية، وهى ما أحدثه الناس واخترعوه فى الدين، لكن البدع منها الغليظ ومنها الخفيف.

ثم بعد الصغائر تأتى الشبهات التى يشتبه فى تحليلها وتحريمها، ومن اتقاها فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن فروع ذلك: الأكل من مال من اختلط ماله، فإن كان أكثر ماله حلالًا: جازت معاملته.

وفى أدنى مراتب المنهيات: المكروهات التنزيهية، التى هى إلى الحلال أقرب، وهو المراد بكلمة المكروه عند الإطلاق، مثل كراهة الأكل متكئًا، وكراهة رفع الصوت فى المسجد، وكراهة تخصيص يوم الجمعة بصيام، والمكروه كما يُعرفه العلماء: هو ما كان فى تركه أجر، ولم يكن فى فعله وزر، فلا يجوز أن يشغل الناس بمحاربة المكروهات، وهم واقعون فى صرائح المحرمات.

---

(١) المدارج ١/ ٣٢٨.

وفى كل هذه الأنواع والدرجات تفصيل وأدلة ساقها الشيخ القرضاوى، وهى مشهورة عند الفقهاء، إنما أردنا أن نأتى بجماع القول، وأن نقرنه بالقواعد الأخرى والظواهر الفقهية العامة فى محل واحد وفى خارطة شاملة فيها مسحٌ للأصول وقواعد وآداب الاجتهاد فى نظريات فقه الدعوة من أجل تمكين الداعية من فهم موقفه فهمًا سليمًا واتخاذ قراراته الدعوية وفق الصواب وما يحبه الله ورسوله.

* وفى مجال الإصلاح: لاحظ الشيخ القرضاوى استطراد ظاهرة الأولويات فى مجال الإصلاح والتربية أيضًا.

فتغيير الأنفس قبل تغيير الأنظمة، وبناء الإنسان الفرد الصالح هو مهمة الأنبياء الأولى، ومهمة خلفاء الأنبياء وورثتهم من بعدهم.

* وإنما يبنى الإنسان أول ما يبنى بالإيمان، أى بغرس العقيدة الصحيحة، والفترة المكية فى السيرة شاهد على ذلك، فالبداية: بناء الإنسان فى ضوء تصور كلى للوجود ومشروع متكامل للحضارة، وتتعاون على ذلك كل المؤسسات: الجامع والجامعة، والكتاب والصحيفة، والتلفاز والإذاعة[1].

* والواجب تقديم التربية على الجهاد، والتكوين على التمكين، وفى مدرسة الليل التى ذكرتها سورة المزمل شاهد، (على أن الجهاد المؤجل هو الجهاد المسلح فحسب. الجهاد بالسيف والسنان. أما الجهاد بالدعوة والبيان، أو الجهاد بالقرآن، فهو مطلوب وقائم من أول يوم).

وسبب وجوب التربية قبل الجهاد: أن جهادنا إنما هو فى سبيل الله، وهذا التجرد لابد له من تربية طويلة.

كذلك فإن ثمرة الجهاد: التمكين والنصر، وهذا التمكين لا يؤتى أكله إلا على أيدى مؤمنين صادقين يستحقون التمكين، و(إن الذين يمكنون وينتصرون قبل أن تنضج تربيتهم: قد يفسدون أكثر مما يصلحون)، ثم إن سنة الله ألا يتحقق التمكين إلا بعد الابتلاء والصقل بالمحن والشدائد، وهذا لون من التربية العملية.

---

(١) فى فقه الأولويات / ٢١٢.

* ومن أولويات الإصلاح: تقديم كل ما يتعلق بتقويم الفكر وتصحيح التصور وتصويب منهج النظر والعمل (فمن ساء تصوره لأمر ما: فالمتوقع أن يسوء سلوكه فى شأنه، فإن السلوك أثر للتصور، حُسنًا أو قبحًا)[١].

والمعركة الفكرية تكون خارج الساحة الإسلامية، مع الملاحدة والذين يهاجمون الإسلام، وداخل الساحة الإسلامية نفسها، لتصحيح الاتجاه فى فصائل العمل الإسلامى، كالتيار الخرافى الابتداعى الذى يميل إلى الجمود والتقليد، والتيار الحَرْفى الذى يغلب عليه الجفاف فى الروح والضيق بالخلاف، وتيار الرفض والعنف الذى يغشاه سوء الظن بالآخرين وضيق الأفق فى فهم الدين والواقع واتخاذ القوة سبيلًا إلى تحقيق الأهداف، وإنما الأمل فى التيار الوسطى بما عنده من شمول وفقه الأولويات، وفقه الموازنات، وفقه الاختلاف، والجمع بين السلفية والتجديد، والموازنة بين ثوابت الشرع وتغيرات العصر، وتقديم الإسلام مشروعًا حضاريًّا متكاملًا، واتخاذ الجهاد سبيلًا للدفاع عن ديار الإسلام[٢].

ولا مراء فى أن هذا التيار هو موطن الأمل ومعقد الرجاء. لذلك فإن الأعداء ظهرت عندهم نغمة جديدة أن: احذروا الإسلام المعتدل، فهو أشد خطرًا من غيره، وللأعداء تلامذة ممن يحملون أسماء المسلمين، ولكنهم يعادون بكل قوة المشروع الحضارى للإسلام.

(إن معركتنا الحقيقية فى داخل أرضنا يجب أن تكون مع هؤلاء الغلاة حقًّا، من العلمانيين وبقايا الماركسيين، الذين لبسوا اليوم لبوس الليبرالية الغربية، والذين جندوا أقلامهم وأسلحتهم كلها لشن الحرب على صحوة الإسلام وانبعاثه من جديد، وتشويه دعوته، والتشويش على دعاته، واختراع مصطلحات جديدة لتنفير الناس منه، مثل الإسلام السياسى، أو الأصولية، والإيقاع بينهم وبين الأنظمة الحاكمة، لاستنزاف قوى البلاد فى صراعات دامية لا تكاد تنتهى إلا لتبدأ من جديد، فى صورة أخرى، وباسم آخر .

---

(١) فى فقه الأولويات / ٢٢٥.

(٢) فى فقه الأولويات / ٢٢٢.

إن أى تحويل للمعركة عن هذا المسار، ومحاولة اختراع أعداء من الإسلاميين أنفسهم، ممن يخالفون بعض الناس فى فروع الفقه، أو حتى فى فروع العقيدة، أو فى أولويات العمل، أو فى المواقف من القضايا الجزئية المختلفة: يعتبر غفلة شديدة عن حقيقة العدو الذى يتربص بالجميع الدوائر، ويريد أن يضرب بعضهم ببعض، وهو يتفرج عليهم، ثم يضربهم جميعًا فى النهاية الضربة القاصمة. فمن فعل ذلك من الدعاة إلى الإسلام عن جهل فهى مصيبة، لأن الجهل بمثل هذه القضية خطر كبير، ومن فعل ذلك عن علم وقصد فهى مصيبة أعظم، وخطرها أكبر، لأنها تكون بمثابة الخيانة للإسلام وأمته وصحوته)[1].

ومن واجب تيار الوسطية (العمل بصدق وإخلاص لتجميع الصف الإسلامى، صف العاملين للإسلام، على الأصول التى لا ينبغى الخلاف عليها) (ولا بأس أن نختلف فى الفروع ونختلف فى المواقف، ونختلف فى الاجتهادات) و(لا مانع من أن تتعدّد الجماعات العاملة للإسلام مادام تعدّدها تعدّد تنوّع وتخصّص، لا تعدّد تضارب وتناقض).

* **وفى مجال التفوق والأهداف الكبرى للأمة:** ساء الشيخ أن أكثر المسلمين يحرصون على حج التطوع، والنوافل، وآداب الملبس والمطعم، لكنهم (أهملوا - إلى حد كبير - فروض الكفاية المتعلقة بمجموع الأمة: كالتفوق العلمى والصناعى والحربى، الذى يجعل الأمة مالكة لأمر نفسها وسيادتها حقًّا وفعلًا، لا دعوى وقولًا، مثل الاجتهاد فى الفقه واستنباط الأحكام، ومثل إقامة الحكم الشورى القائم على البيعة والاختيار الحر، ومثل مقاومة السلطان الجائر، والمنحرف عن الإسلام، ناهيك بالمعادى له، وأهملوا بعض الفروض العينية، أو أعطوها دون قيمتها، مثل فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) (ومن ذلك: انصراف الكثيرين إلى مقاومة الصغائر مع إغفال الكبائر الموبقات، سواء كانت موبقات دينية، كالعرافة، والسحر، والكهانة، واتخاذ القبور مساجد، والنذر والذبح للموتى، والاستعانة بالمقبورين، وسؤالهم قضاء الحوائج، وكشف الكربات، ونحو ذلك مما كدّر صفاء عقيدة التوحيد. أو موبقات اجتماعية وسياسية: مثل: ضياع الشورى،

(١) فى فقه الأولويات / ٢٢٥.

والعدالة الاجتماعية، وغياب الحرية، وحقوق الشعب، وكرامة الإنسان، وتوسيد الأمر إلى غير أهله، وتزوير الانتخابات، ونهب ثروة الأمة، وإقرار الامتيازات الأسرية والطبقية، وشيوع السَرَف والترف المدمر.

هذا الخلل الكبير الذى أصاب أمتنا اليوم فى معايير أولوياتها، حتى أصبحت تُصغّر الكبير، وتكبر الصغير، وتعظم الهين، وتهوّن الخطير، وتؤخر الأول، وتقدم الأخير، وتهمل الفرض، وتحرص على النفل، وتكترث للصغائر،وتستهين بالكبائر، وتعترك من أجل المختلف فيه، وتصمت عن تضييع المتفق عليه، كل هذا يجعل الأمة اليوم فى أمس الحاجة – بل فى أشد الضرورة – إلى فقه الأولويات)[1].

ومن هذه النقول، ومما تناثر فى مواضع أخرى من قول الشيخ القرضاوى: يتضح التوافق التام بيننا بحمد الله، مع فضل السبق والريادة له، نفع الله به.

* * *

(١) فى فقه الأولويات / ٢١-٢٤.

obeikandl.com